

كتاب (أناشيد للوطن)*

أ.د. أبو القاسم سعد الله

جيل الكهول يتذكر بدون شك أهمية الأناشيد في الحياة الوطنية، فقد كانت الدعوات القومية وشعارات التحرير تمثلها الأناشيد والأغاني الحماسية التي كانت تعبئ الجماهير وأنصار الأحزاب وأعضاء الكشافة وتجمع كلمتهم حول مبادئ ومثل عليا كالتضحية والفداء وحب الوطن. إن جيل الخمسينات يعرف كم أنتجت نكبة فلسطين وثورة الجزائر والوحدة بين مصر وسورية والنضال من أجل استقلال كل قطر عربي من أناشيد هادفة وملتزمة تبعث الآمال وتدفع الطموح عند الشباب إلى ذروة المجد. فكم بقي الآن من تلك الأناشيد؟ ولماذا خفت صوتها حتى كاد يختفي؟ ومن هم قائلوها وملحنوها ومنشدها؟ ذلك ما حاول الإجابة عنه الكتاب الذي نقدمه للقراء.

إن (أناشيد للوطن) مجموعة من القصائد والقطع الشعرية الحماسية الموجهة جمعها وصنفها ودرسها الفنان الخبير والأديب القدير الأستاذ الأمين بشيشي، والكتاب يتألف من مقدمات وقضايا عامة، ومن محاور رئيسية رتبها كما يلي:

(*) تأليف الأمين بشيشي، ط. الجزائر، ١٩٩٨م، ٤١٦ صفحة: نصوص وصور ونوتات موسيقية.

أ - أناشيد راجت قبل ثورة التحرير الجزائرية (ثورة نوفمبر)، وهي في الواقع أناشيد ليست خاصة بالجزائر وأصحابها ليسوا كلهم جزائريين، ويضم هذا المحور سبعة عشر نشيداً وخمسة عشر من الشعراء والملحنين والفنانين، منهم جزائريون ومنهم عرب مشاركة، مثل بشارة الخوري وإبراهيم طوقان.

ب - أناشيد انتشرت أثناء كفاح الجزائر المسلح من أجل الاستقلال (١٩٥٤-١٩٦٢) وتضم أربعة عشر نشيداً وقصيداً أسهم فيها ما لا يقل عن ثلاثة عشر شاعراً وفناناً وملحناً معظمهم جزائريون، وفيهم عرب من المشرق والمغرب، مثل محمد كامل قدسي، ومحمد التريكي، ومحمد فوزي.

ج - أناشيد ما بعد استقلال الجزائر وقد تضمن هذا المحور بذاته أربعة أقسام جعل لها الأستاذ بشيشي العناوين التالية:

١- نوفمبريات أو الإشادة بشهر الثورة، وتضم سبعة أناشيد أنتجها سبعة شعراء وفنانين.

٢- ستة أناشيد تدعو إلى العلم والمعرفة وقد شارك فيها ثلاثة من الشعراء والفنانين.

٣- ستة أناشيد أسهم فيها ثلاثة شعراء وفنانين أيضاً.

٤- ثلاثة عشر نشيداً تدعو الجيل الصاعد إلى النهضة والبناء، وقد أسهم فيها سبعة شعراء وفنانين، منهم الشاعر السوري سليمان العيسى.

٥- وأخيراً أربعة عشر نشيداً تتحدث عن الوطن والأجداد، وقد شارك في إنتاجها تسعة شعراء وفنانين منهم الشاعر العراقي معروف الرصافي.

د - أناشيد الهواء الطلق - والمقصود بها الأناشيد الموجهة إلى فتيان الكشافة الذين كان الخطاب موجهاً إليهم في أحيان كثيرة باعتبارهم يمثلون روح النضال وأمل التحرير، وعدد هذه الأناشيد تسعة.

وقد ختم المؤلف محاور الكتاب بملاحمة (زهرة المدائن) التي أبدعها الأخوان رحباني، وكأنني به أراد بذلك أن يربط بين روح الإبداع والنضال في المغرب والمشرق، وكذلك بين الثورة الجزائرية والمقاومة الفلسطينية.

وهكذا ترى أن الأناشيد والقصائد كانت تمثل عهداً ناصعاً في حياة الأمة على المستوى القطري والقومي، وقد جاءت على لسان كوكبة من الشعراء الجزائريين أمثال: الأمير عبد القادر، ومحمد العيد آل خليفة، ومفدي زكريا، وأحمد سحنون، ومحمد الأخضر السائحي، إضافة إلى شعراء من الجيل المخضرم، ومن الشعراء العرب هناك أبو القاسم الشابي، بالإضافة إلى من ذكرناهم. أما بالنسبة للملحنين فمنهم جزائريون مثل عبد الوهاب سليم وهارون الرشيد وأحمد وهي، وغيرهم مثل الملحن التونسي صالح المهدي، إضافة إلى من أشرنا إليهم.

ولابد من التنويه بأن هناك أناشيد كتبت بالشعر الملحون (الزجل) أيضاً، إضافة إلى شعر مترجم عن الفرنسية كتبه الشاعر مالك حداد.

ومن جهة أخرى، قام الأستاذ بشيشي بما أسماه «بالتحقيقات» وهو يقصد بذلك مناقشة قضايا تتعلق بأناشيد وألحان اختلف الباحثون في نسبتها إلى قائلها أو في نصوصها، فكان بشيشي هنا مؤرخاً وناقداً، إضافة إلى كونه فناً متذوقاً. وكانت تحقيقاته مركزة على سبعة أناشيد هي: (قسما)، وهو

النشيد الرسمي للجزائر، الذي نظمه الشاعر مفدي زكريا، وليس في ذلك خلاف، ولكن النقاش دار حول مكان وظروف نظمه وتاريخه بالضبط، وكيف وصل نصه إلى تونس ومنها إلى مصر زمن حرب ضروس وعدو شرس، ومن هو صاحب الفضل في تلحينه أول مرة وترويجه، هل هو محمد التريكي التونسي أو محمد فوزي المصري، هذه النقطة عاجلها بشيشي بكثير من الدقة وذكر الحيشيات والوقائع والاستنباط، وهو نفس المنهج الذي عالج به أناشيد حزبية أو وطنية ضربت بسهم وافر في الشهرة، ومع ذلك ظلت مجهولة القائل، أو أنها عرفت تقدماً أو تأخيراً أو حذفاً في بعض نصوصها. ويصدق ذلك على الأناشيد التالية: (فداء الجزائر)، و(شعب الجزائر مسلم)، والنشيد الأخير كان بالأساس قصيدة من ٣٧ بيتاً قالها الشيخ عبد الحميد بن باديس سنة ١٩٣٧م، ثم (من جبالنا طلع صوت الأحرار) الذي وثقه بشيشي بناء على ظروف تاريخية ومراسلات مع الأحياء أضاءت جوانب الموضوع وأزالت الغموض في نسبته إلى قائله. وقد نال نشيد (جزائرننا) و(نشيد العمال) حظاً من البحث والتدقيق أيضاً. وأخيراً نشيد (أدعوك يا أملي) الذي لا يختلف اثنان في كونه من وضع الشاعر صالح خريفي، غير أن تحقيق بشيشي انصب على دور الملحنين له.

وقد ربط الأستاذ بشيشي ربطاً قوياً بين الأناشيد والتربية الوطنية، فالنشيد في رأيه وسيلة من وسائل التوجيه في السلوك والتكوين الوطني والقومي، ليس فقط على مستوى الشبيبة بل أيضاً على مستوى الجماهير وتعبئتها من أجل هدف محدد ولاسيما في النصف الأول من القرن العشرين، تلك الحقبة التي عرفت بداية اليقظة الوطنية والوعي بتقرير المصير والتخلص من

الاستعمار، كما كان للنشيد دور هام في التوجيه، إذ كثير من الأفكار الاجتماعية والعقدية والسياسية كان المتعلمون يتلقونها من خلال الأناشيد باعتبارها مرتبطة بالطبيعة وفورة الشباب وبراءة الحياة، وكل ذلك كان مرتبطاً بالأداء الموسيقي والروح الجماعية، لأن المنشد قلما كان يتحدث بضمير المفرد، إضافة إلى أن الألحان الأصيلية تساعد على التسامي والطموح وتدفع إلى التضحية والحماسة.

وعن الجانب التاريخي يقول الأستاذ بشيشي إن مسيرة الأناشيد بدأت سنة ١٩٤٧م عندما ألف المرشد الكشفي محمد الصالح رمضان «نشيد الرياضة»، وهذا لا يعني أن الجزائر أو الوطن العربي لم يعرف الأناشيد قبل تلك السنة وإنما معناه أن نشيد الرياضة المذكور قد فتح عهداً جديداً من العلاقة بين التربية والتعليم وبين الكشافة والرياضة، أما بداية الأناشيد الوطنية فيمكن إرجاعها إلى فاتح القرن العشرين، حين تغنى أمثال عمر بن قدير ثم محمد سعيد الزاهري ومحمد اللقاني ومحمد الهادي السنوسي وأبي القاسم الشابي وغيرهم بأناشيد حماسية باسم الشعب والحرية.

ويقرّ الأستاذ بشيشي بأنه لم يكن هو الأول في جمع الأناشيد ونشرها، فقد سبقه من أصدر كتيبات تضم أناشيد وطنية أغلبها عن الكشافة الإسلامية الجزائرية التي كان جناح منها، على الأقل، مرتبطاً بالحركة الوطنية (أي مسيساً)، وكانت هذه الحركة تستعمل الكشافة غطاء لجمع كلمة الشباب وتوعيتهم وإعدادهم لخوض معركة التحرير، ولاسيما عندما تمنع الإدارة الاستعمارية في اضطهاد زعماء الحركة الوطنية. ولا يعني هذا أن كل الأناشيد

كانت مرتبطة فقط بالحركة الكشفية، فهناك هيئات أخرى للشباب كانت مؤطرة في أحزاب ومنظمات وكان لها دورها في نشر النصوص الشعرية (الأناشيد) واستقطاب الشعراء. ولا يخفى أن مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كانت تتخذ من الأناشيد منهاجاً للتكوين العقدي (الايديولوجي) ولاسيما التاريخ العربي والإسلامي والإشادة بالأجداد والإيمان بالجزائر الحرة. ومعظم الذين مارسوا التعليم في مدارس جمعية العلماء وكذلك في مدارس حزب الشعب يعرفون ذلك^(١).

ولكن ما نشر من الأناشيد قبل هذا الكتاب كان حسب رأي بشيشي حالياً من التدوين الموسيقي. باستثناء تجربة بو علام منصور سنة ١٩٦٥. وقد لاحظ الأستاذ بشيشي أن ما نشر قبل كتابه متضمناً تدويناً موسيقياً لم يكن منسوباً لأصحابه مما اعتبره هو إجحافاً بحق الملحنين المبدعين. لذلك اعتمد في كتابه هذا على الجمع بين النص وصاحبه واللحن وصاحبه أيضاً، مع الدراسة والتعليق والتوثيق، وقد بذل جهداً مشكوراً في البحث عن المادة الأدبية والفنية، وجمع المعلومات عن سير المبدعين من الشعراء والملحنين، ومع ذلك قال إنه اكتفى «بربط اللحن النغمي فقط تسهياً للأداء وتبسيطاً للأناشيد» (ص ٦).

(١) يرى المؤلف أن الكشافة الإسلامية الجزائرية هي المؤسسة الأم للأناشيد الوطنية منذ تكوينها، ثم يضيف إليها المدارس الحرة (ولاسيما مدارس جمعية العلماء)، وهو يعترف أن كتاب (شعراء الجزائر) لمحمد الهادي السنوسي قد تضمن أناشيد قوية في الرد على الاستعمار، وقد ظهر كتاب (شعراء الجزائر) خلال العشرينات.

ومع كل هذا الاهتمام بالدقة والتوثيق اعتذر الأستاذ بشيشي عن بعض الهفوات التي تمنى ألا تكون. وقد حاول من جهته تدارك ذلك ولكنه ترك الباقي للآخرين، مثل البحث عن بقية نشيد (دمت يا بيضاء مادام الزمن) الذي رجح أنه من نظم محمود بوزوزو وتلحين عبد الرحمن عزيز. كما تأسف لكون النصوص الشعرية خالية من أسماء الشاعرات، ولكنه أكد أن ذلك لا يعني أن المرأة لم تنظم الأناشيد. وقد وصف ذلك بأنه «إغفال غير مقصود» كما اعتذر عن الاكتفاء بعدد محدود من النصوص الفصيحة لاستحالة جمع كل ما أنشد بهذا الصدد، ولأن ذكر الجميع قد يضاعف حجم الكتاب.

وكان الأستاذ بشيشي يتمنى أن يقوم بشرح الألفاظ غير الواضحة الواردة في النصوص ولكنه لم يتمكن من ذلك في هذه الطبعة، ولاحظ أيضاً أن كثيراً من الأناشيد المكتوبة باللغة الدارجة لم يدرجها في كتابه، رغم أنها حسب قوله ذات تأثير في وجدان الشعب ولها دور فعال في التربية الوطنية.

وبعد إسداء الشكر إلى كل من وجد منهم الدعم والتأييد، وهم أكثر، ذكر الأستاذ بشيشي أن مصادره مكتوبة ومسموعة ومنها الشهادات الفردية، وأغلب الأناشيد والألحان جاءت مرافقة بصور أصحابها، وهكذا يكون كتاب (أناشيد للوطن) ليس مجرد مجموعة من النصوص و«النوتات الموسيقية» ولكنه موسوعة في بائها لا يمكن الاستغناء عنها عند التاريخ للحياة الفنية والأدبية والسياسية. كما أن الكتاب يعد وثيقة وطنية وقومية تضافرت فيه جهود جيل من الشعراء والملحنين والفنانين الجزائريين والعرب من أجل قضية من أنبل

قضاياهم المعاصرة، وهي الحرية.

* * *